النجاح والتفوق

ذكاء أم اتجاه ؟

بقلم الأستاذ سلامه موسى

كثيرا ما نرى الرؤساء أو الأغنياء أو من يتبوأون المقاعد العليا و يضطلعون بالتبعات الجسام لا يتمتعون بذكاء نادر فضلا عن نبوغ أو عبقرية . وعندئذ نتساءل عن تفوقهم وتبريزهم كيف اتفقا لهم ؟

واذا أمعنا النظر وجدنا أن لهم ميزات ولكنها ليست ميزات الذكاء . بل لعل أحدهم يكون دون بعض مرءوسيه فى الذكاء . ولكنه يمتاز عليه فى أشياء أخرى هى التى تعمل للتفوق والتبريز . وهذه الأشياء تتعلق بالأخلاق والعادات والاتجاهات . فان معظم أعمالنا أو نحو ٩٩ فى المائة منها لا تحتاج الى ذكاء نادر ، لأننا لسنا جميعنا مخترعين أو مكتشفين ، ولسنا فلاسفة نبحث سنن الطبيعة أو نحاول تنقيح المجتمع . فقد يحتاج مثل هذه الأعمال الى عبقريات ضخمة أو ذكاء يفوق المتوسط . ولكن أعمال الناس يكفى فيها الذكاء المتوسط . ويرجع تفوقهم فيها الى أنواع من السلوك تساعد على النجاح . كما أنه يحدث كثيرا أن يخيب الذكى لأنه يتخذ أسلوبا من العيش يؤخره . فقد يتعود الذكى عادات سيئة مثل القمار تجعل كل مكاسبه تذهب هباء . أو قد يتعود الشراب فيتلف صحته ويشيخ قبل الأوان . أو قد يتعود الإهمال سواء فى هندامه أو فى عمله أو حتى فى لغته فيحدث أثرا سيئا فى جميع من يحتكون به فيثقل عليهم ظله ويكرهون لقاءه . بل هناك من يكون ذكيا فى عمله ولكنه سيء العلاقات مع زوجته فيعيش ساخطا غاضبا فى نكد لا ينقطع . ويتأثر عمله بسخطه وغضبه .

وكثيرا ما يكون التفوق عادة أو اتجاها . والعبرة هنا بالسنوات الأولى فى الطفل . فانه اذا تعود التفوق صار هذا فيه عادة حتى لا يطيق التخلف . وهذا هو التفسير لتلك الظاهرة التى نراها فى المدارس . وهو أن الأول فى الفصل يحتفظ بترتيبه سنة بعد أخرى . وهو يحتفظ بها ، لا لأنه أذكى التلاميذ ، بل لأنه قد اتجه هذا الاتجاه واعتاد عادته الأولية ، وهو يتألم عند ما يتخلف . وهذا هو السبب فى أنه فى " اختبار الذكاء " لا يعتمد القائمون به على امتحانات

المدارس . لأن لهـذه الامتحانات عوامل و بواعث أخرى غير الذكاء . ولو كان التفوق المدرسى ينبنى على قوة الذكاء لما كان هناك معنى أو مغزى فى اختبارات الذكاء، اذ كان يجب أن يكتفى بنتائج المدرسة .

أو نستطيع أن نقول إن ذلك التلميذ الذى يحتفظ بالأولية فى فصول المدرسة يتخذ أسلوبا من الاستقامة والمثابرة والدقة والمواظبة لا يتخذه سائر التلاميذ . فهو حتى حين يكون دونهم فى الذكاء يتفوق عليهم بهـذا الأسلوب . ثم يصير هذا الأسلوب عادته واتجاهه مدى حياته فى المدرسة أو الكلية .

وكذلك الشأن فى الحياة . فان لكل منا اتجاها ومستوى للطموح وعادات تؤدى الى النجاح أو الخيبة . وهى جميعا تنتهى بنا الى النهـاية المنطقية . بحيث لو استطعنا أن نعرف جميع هذه الأحوال على وجه الدقة والتفصيل فى شاب قـد بلغ العشرين لكان فى مقدورنا أن نتكهن بمـا سوف يكونه عند ما يبلغ الخمسين أو الستين .

وهناك أشياء كثيرة نستصغر شأنها مع أن مغزاها كبير جدا فى تحقيق النجاح ، فقـد يتعود أحدنا الصمت فيبدو عليـه وقار يلقى فى روع من يحتكون به أنه رجل رزين بصير فيحتكم اليـه المختلفون و يعتمد عليه فى الاستشارة ونحو ذلك . ومثل هذه الثقة العامة تخدمه فى الأزمات وترفعه الى مراكز سامية كبيرة التبعات . وقد يعتاد أحدنا الاسراف فى المزاح فتزول الثقة فيه مع أنه جدير بها . ثم هناك عادات اجتماعية أخرى فى المعيشة البيتية ومعاملة الناس وكراهة الديون أو قلة الاكتراث لها والتبذير والتقتير وحلاوة اللسان أو فظاظة المنطق فإن كل هذه الصفات ترفع أو تحط .

وكما أن التفوق أو النجاح يعود الى عادات واتجاهات تتأصل فى الأغلب منذ سنى الطفولة ، كذلك الخيبة والفشل والتخلف إنما ترجع فى الأغلب الى عادات واتجاهات تثبت منـذ أيام الطفولة وتنمو أكثر مما ترجع الى قلة الذكاء . ولسنا بالطبع نسير هنا الى تلك الحالات البارزة النادرة حين نجد شخصا مغفلا أو أبله قد سال لعابه . لأننا إنمـا نعنى هنا المتوسط العام من الناس .

فإن تدليل الطفل مثلا يغرس فيه أسلوبا من العيش ينمو معه الى أن يبلغ الشباب، بل قد يتجاوزه الى سن الكهولة فالشيخوخة . وكلنا يعرف ذلك " الطفل الكبير " فى الشاب الذى يحب الحلوى ولا تهدأ أسنانه عن المضغ . أو ذلك الشاب الذى لا يطيق سلطة الرئيس لأنه تعود أن يخضع أمه لإرادته لا أن يخضع لها ، وذلك المترف الذى لا يطيق الكد والكدح، ثم هناك الصبى التى تعود عادات سيئة من زملاء الشارع أو المدرسة فان هذه العادات لن

تتركه وهو كبير . وإذا تعودنا الإهمال وعشنا فى بيت مشوش ليست فيه مواعيد منظمة فاننا قلما ننجح بعد ذلك فى اتخاذ أسلوب المتمدنين فى المحافظة على المواعيد أو المواظبة أو العناية بالترتيب .

بل الإجرام نفسه هو أسلوب فى العيش واتجاه وعادة ، وليس المجرم قليل الذكاء ولكنه قد تعود عادات سيئة كالكسل مثلا ، فانه يكره الجهد المتواصل الذى يطلبه العمل . وهو فى الأغلب قد ارتكب فى صباه سرقات صغيرة لا يؤبه بها لتفاهتها ولكنها أكسبته أسلوبا من العيش قد لصق به فهو يعتمد عليه فى شبابه . وقد أصبح هذا الأسلوب عادة واتجاها ، فهو يفكر فيه ويبنى طموحه عليه ويقيس به القيم الاخلاقية ، وعنده أن الشجاع هو ذلك المحتال الكبير أو اللص الجرىء الذى لا يقوى رجال الشرطة على إلقاء القبض عليه . وهو يجالس زملاءه فى الجريمة ويستمع لقصص المجرمين ويتخذ الأقيسة الاخلاقية التى يقيسون بها الذكاء والحيلة والجراءة والإقدام والتبصر والحذر ، فيتألف له من كل ذلك عالم آخر يعيش فيه بخياله وعقله وقلبه . فهو يطلب النجاح والتفوق ولكن مقاييسه تختلف عنا وترجع الى أسلوب من العيش تعلمه فى الصبا ونما معه حتى صار جذورا تطارده فيه السلطات .

وخلاصة القول أن مهمة الذكاء فى التوفيق أو الخيبة وفى الاستقامة أو الانحراف ليست كبيرة . لأن العبرة بالاتجاه والعادة وأسلوب العيش ، أو بكلمة واحدة فى الأخلاق .

سلامه موسى

من حكم شوقى

يستريح النائم من قيود الحياة . كما يتروح السجين ساعة فى فناء السجن .

دود الحرير أخرق ، هلك تاركا للناس خير ما لبسوا ، فما تركوا له منه كفنا ، والنحل حكيم ، طعم من كل الثمرات ثم أطعم .

العقول الكبار درر كبار ، لا تخلو واحدة من خدش يظهره الخلق أو يخفيه .